المبحث الأول

مدخل إلى علم الكلام

أولاً : تعريف الكلام

ثانيًا : أهم أسماء علم الكلام

ثالثًا : موضوع علم الكلام وفائدته في نظر علمائه

رابعًا: علم الكلام بين المهاجمين والأنصار.

obeikandl.com

المبحث الأول
مدخل إلى علم الكلام

أولاً: تعريف علم الكلام:

يُعرِّف «أبو النصر الفارابي» علم الكلام فيقول: «صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل»[١] أمّا الإمام الغزالي (ت ٥٠٥هـ). فيقول: «إن مقصود علم الكلام هو حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها من تشويش أهل البدعة»[٢].

---

(١) الفارابي «إحصاء العلوم» تحقيق الدكتور عثمان أمين. القاهرة ١٩٣١ ص٦٩. ويميز الفارابي بين علم الكلام والفقه فيقول أن علم الكلام يتعلق بنصرة العقائد التي صرح بها واضع الملة، أمّا علم الفقه فيتعلق باستنباط العقائد والشرائع جميعًا. فعلم الفقه عند الفارابي هو الصناعة التي بها يقتدر الإنسان على أنه يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح به واضع الشريعة. أمّا علم الكلام فهو صناعة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل.

ونلاحظ أن الفارابي لا يساير العلماء الذين يفرقونَ بين الفقه والكلام، بأن ما يتناول الجانب العملي من الشريعة فهو الفقه، وما يتناول الجانب النظري.فهو علم الكلام.

(٢) الغزالي المنقذ من الضلال: ص٦.

ويتفق ابن خلدون (ت٧٨٤) مع الإمام الغزالي في هذا الرأي فيعرف علم الكلام: (بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة.

مقدمة ابن خلدون تحقيق علي عبد الواحد وافي ١٩٦٠، طبعة أولى جـ٣ فصل الكلام ص١٠٣٥. كما يتفق عبد الرحمن الأيجي (ت ٧٣٧هـ) معهم في هذا الرأي

ويقول سعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ): «الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية. ومسائله القضايا النظرية الشرعية الاعتقادية، وغايته تحلية الإيمان بالإيقان، ومنفعته الفوز بنظام المعاش ونجاة المعاد، وغاية الكلام أن يصير الإيمان والتصديق بالأحكام الشرعية متيقنًا محكمًا، لا تزلزله شبه المبطلين، ومنفعته في الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التي يحتاج إليها في بقاء النوع على وجه لا يؤدي إلى الفساد، وفي الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد»[(١)].

كذلك كان موضوع علم الكلام عند الأيجي فهو «المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقيدة الدينية، تعلقًا قريبًا أو بعيدًا وقيل: هو ذات الله تعالى، إذ يبحث عن صفاته، وأفعاله في الدنيا، كحدوث العالم، وفي الآخرة كالحشر، وعن أحكامه فيهما، كبعث الرسول ونصب الإمام والثواب والعقاب»[(٢)].

ومعنى ذلك أنه كان من أهداف علم الكلام الدفاع عن العقيدة الإسلامية إزاء أعداء الدين ومعرفة الذات والصفات وبعث الرسول، والفوز بنعيم الآخرة، وحقيقة الجنة والنار. فعلماء الكلام هم الذين

فيقول: «الكلام علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه، المراد بالعقائد: ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل، وبالدينية: المنسوبة إلى دين محمد ﷺ فإن الخصم وإن خطأناهُ لا نخرجه من علماء الكلام (المواقف للأيجي ص٧ تصوير مكتبة المتنبي بالقاهرة.

(١) شرح سعد الدين التفتازاني جـ١ ص٥-١٠، باختصار.

(٢) المواقف للأيجي جـ١ ص٣٤.

يتخذونَ العقل وسيلة لإثبات العقيدة والدفاع عنها بالنظر العقلي.

ويقـــول الدكتور: محمد عبد الهادي أبو ريدة[١]: ((كان النظر في الديـــن بأحكامـــه وعقائده يسمى فقهًا، ثم خصت الاعتقاديات باسم الفقـــه الأكـــبر، وخصـــت العملـــيات باسم الفقه، وسميت مباحث الاعـــتقاديات بعـــلم التوحـــيد أو الصفات —تسمية للبحث بأشرف أجزائه- أو علم الكلام، لأن أشهر مسألة قام حولها الخلاف هي مسألة كـــلام الله، أو لأنـــه يـــورث قدرة الكلام في الشرعيات كالمنطق في الفلسفيات، أو لأنه كثر فيه الكلام على المخالفين ما لم يكثر في غيره، ولأنـــه بقـــوة أدلته كأنه صار هو الكلام دون ما عداهُ كما يقال في الأقوى من الكلامين: هذا هو الكلام)).

وطاش كبرى زاده (ت ٩٤٨) في مفتاح السعادة يقول عن علم الكـــلام أنه: ((علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج علـــيها ودفع الشبه عنها... ويشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل، وأن تكون العقيدة مما وردت في الكتاب والسنة. ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلامًا أصلاً))[٢].

---

(١) في حاشـــية (١) ص٩٥، مـــن ترجمته لكتاب ـدي بور: تاريخ الفسلفة في الإسلام القاهـــرة ٥٧ وقـــد اســـتند في هـــذا القول على مجموعة مصادر متعددة في الفلسفة الإسلامية، وعلم الكلام.

(٢) مفـــتاح الســـعادة ومصـــباح الســـيادة لطاش كبرى زاده جـــ٢ ص١٥٠. ونفس الـــتعريفات المتقاربة المعنى والهدف يذكرها صديق خان ـرحمه الله- ت ١٣٠٧هـــ. فـــيقول في أبجـــد العلوم: (علم الكلام علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجـــج علـــيها ودفع الشبه عنها. وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المـــتقدمين، وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود. فموضوع علم الكلام عند

وهـــنا يتفق طاش كبرى زاده مع المناصبرين لعلم الكلام في بيان أهمية الشبه عن العقيدة وتأييده الشرع باستخدام النظر العقلي.

والحقـــيقة أن هـــناك تعريفات عديدة لعلم الكلام من أشهرها تعـــريف ابن خلدون في مقدمته: «أنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة»[١].

والحقـــيقة أن هـــذا التعريف يبدو فيه غلوًا وتجوزًا خصوصًا إذا علمـــنا أن الســـلف الصـــالح هجروا هذا العلم، ونهوا أصحابهم عن الاشـــتغال به؛ لأنه علم جدل وحجاج، ومع ذلك فإن هذا التعريف كما سنرى —بعد ذلك– يعتبر من أبسط التعريفات وأوضحها وأشملها.

أمّـــا تعريف الفارابي الذي ذكرناهُ من قبل أنه: «ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل»[٢].

فيقصـــد بالأقاويل الأدلة العقلية التي يستخدمها علماء الكلام في نصرة وتأييد المسائل العقدية والدفاع عن مذاهبهم.

ويقول عالم الكلام عبد الرحمن الإيجي، في كتابه "المواقف في علم الكلام" علم الكلام: «علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد

أهلـــه إنمـــا هو العقائد الإيمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع حيث يستدل عليها بالأدلة العقلية). أبجد العلوم لصديق خان جـــ٢ ص٥٨٩ وما بعدها باختصار.

(١) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، ص٤٥٨. ١٩٧٨م.

(٢) الفـــارابي، أبـــو نصـــر، إحصاء العلوم، تحقيق الدكتور/ عثمان أمين، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص١٣١.

الحجج ودفع الشبه»[١].

وإن هذين التعريفين للفارابي والإيجي يؤكدان على أن عالم الكلام إذا كان متمكنًا من علمه فإنه في رأيهما يمكنه أن يرد على خصومه وأن ينتصر لعقائده ويدافع عن مبادئه، ويرد الشبه عن أصوله عن طريق الجدل والنقاش العقلي.

ويعرف سعد الدين التفتازاني علم الكلام بأنه: «يعرف بالعلم الباحث عن أحوال الصانع، وفي صفاته الثبوتية والسلبية وأفعاله المتعلقة بأمر الدنيا والآخرة، أو عن أحوال الواجب وأحوال الممكنات في المبدأ والمعاد على قانون الإسلام»[٢].

ويعرفه أيضًا بأنه: "العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية"[٣].

وكذا يعرفه الشريف الجرجاني بأنه: «علم يبحث فيه عن ذات الله تعالى وصفاته، وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الإسلام»[٤].

ومن الملاحظ أن تعريف التفتازاني، والجرجاني يتناولان من خلاله موضوعات علم الكلام، وأهم مباحثه وأشرفها: ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله، وإثبات العقائد الدينية، فهو علم يأخذ بمنهج البحث

---

(١) الأيجي، عبد الرحمن، المواقف في علم الكلام، شرحه الشريف الجرجاني، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٧م.

(٢) التفتازاني، سعد الدين، شرح المقاصد، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة، عالم الكتب جـ١ ص١٧٩. بيروت، ١٤٠٩هـ.

(٣) المرجع السابق، جـ١، ص١٦٣.

(٤) الجرجاني، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، ص١٩٤، ١٩٧٨م.

والـنظر والاستدلال العقلي كوسيلة لإثبات العقائد الدينية التي تثبت بالوحي[١].

لكن أطول تعريف لعلم الكلام جمع معظم ما قيل من تعريف هذا العلم هو تعريف صاحب كشاف اصطلاحات الفنون الشيخ المولوي

محمـد عـلى بـن عـلي التهانوي، ويُعد من أشمل التعريفات وأوضـحها، ولهـذا فـنحنُ نـورده في ملحق هذا الكتاب لشموله ووضوحه.

ثانيًا: أهم أسماء علم الكلام

لعلم الكلام أسماء عديدة، منها علم أصول الدين وعلم التوحيد.

١- علم أصول الدين:

صـنف عـلماء الكلام مؤلفات كثيرة تناولت موضوعات علم الكلام تحت اسم أصول الدين، مثل الأربعين في أصول الدين للجويني، والأربعـين في أصـول الدين لأبي حامد الغزالي، والأربعين في أصول الدين للفخر الرازي.

ويقصـد بأصول الدين أي أمهات العقائد المتعلقة بمعرفة الله عز وجـل ووحدانيته وصفاته ورؤوس موضوعات العقيدة كالقدر والجبر وغيرها من مسائل العقيدة وتوحيد الله عز وجل.

يقـول ابـن أبي العز –رحمه الله–: «علم أصول الدين أشرف العلـوم. وحاجة العباد إليه فوق كل حاجة، وضرورتهم إليه فوق كل ضرورة، لأنه لا حياة للقلوب، ولا نعيم، ولا طمأنينة، إلا بأن تعرف

---

(١) الدكـتور عرفان عبد المجيد، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٤هـ، ص١٣٥.

ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون مع ذلك كله أحب إليها مما سواهُ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه دون غيره من سائر خلقه))[١].

ومن أسمائه: ٢- علم التوحيد

وذلك لأن توحيد الله تعالى أهم مباحثه وأجزائه وأعظم مقاصده وأشـــرفها، لأن شرف العلم من شرف المعلوم، وهو توحيد الباري عز وجل[٢].

التوحيد في اللغة:

قال الفيروزآبادي: (التوحيد: الإيمان بالله وحده لا شريك له)[٣].

والتوحـــيد في الاصـــطلاح: (إفـــراد المعبود بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً)[٤].

يقـــول ابـــن القيم –رحمه الله–: (لا ريب أن العلم به [أي بالله تعالى] وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلـــوم كنســـبة معلومه إلى سائر المعلومات، وكما أن العلم به أجل العلـــوم وأشرفها فهو أصلها كلها، كما أن كل موجود فهو مستند في

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص٦٠.

(٢) من الملاحظ أننا نجدُ أن بعض علماء الكلام اشتطوا ووقعوا في المحذور حيث جعلوا من الشك في الباري جل وعلا واجبًا على المكلف حتى يصل بالنظر والعقل إلى أنه واجب الوجود على الحقيقة.

(٣) القاموس المحيط، جـ١، ص٣٤٣.

(٤) محمـــد الســـفاريني الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ، جـ١، ص٥٧.

وجـــوده إلى الملك الحق المبين، ومفتقر إليه في تحقيق ذاته وأبنيته، وكل عـــلم فهو تابع للعلم به ومفتقر في تحقيق ذاته إليه، فالعلم به أصلُ كل علم كما أنه سبحانه وتعالى رب كل شيء ومليكه وموجده)[١].

والحقـــيقة، إن التوحـــيد هـــو أول واجب يجب علىٰ الإنسان المكلف، وهو أول ما يدخل به في الإسلام وأخر ما يخرج به من الدنيا، يقول رسول الله ﷺ: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**» [أبو داود].

ولقـــد قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه لليمن: «**فليكن أول مـــا تدعوهـــم إليه لا إله إلا الله**»، وفي رواية: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده**» [أخرجه البخاري].

أنواع التوحيد

يتنوع التوحيد إلى نوعين:

الأول توحـــيد المعـــرفة والإثـــبات، ويسمى أيضًا توحيد العلم والاعتقاد وهو يشمل توحيد الربوبية أو توحيد الأسماء والصفات.

والنوع الثاني: هو توحيد الإرادة والقصد، ويسمى أيضًا الطلب والقصـــد، أو التوحـــيد القصدي الإرادي، ويقصد بهذا النوع توحيد العبادة.

أمّـــا عند النظر إلى التوحيد باعتبار متعلقه فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد الألوهية.

فتوحـــيدُ الربوبـــية لبـــيان أن الله تعالى وحده خالق كل شيء، وتوحيد الأسماء والصفات للكلام في صفات الله تعالى.

---

(١) ابن القيم، مفتاح دار السعادة، جـ١، ص٨٦.

وتوحـــيدُ الإلهية بيان قصر العبادة على الله تعالى، فلا يعبد معبود سواه فهو وحده لا شريك له.

والحقـــيقة إن الصـــلة بين أنواع التوحيد متلازمة إذ أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يستلزمان توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمنها. وهذا يعني بكل وضوح أن توحيد الألوهية متضمن لتوحـــيد الربوبـــية والأسماء والصفات، بمعنى أن الإيمان بوحدانية الله وتقـــديم العبادة له، لا يحصل إلا ممن أقرَّ بأن هذا الإله المعبود هو رب العالمين، لأن العبادة لا تصرف حقيقة إلا للرب المتصف بالكمال، المنزه عن النقص[١].

علم الفقه الأكبر:

وقد سماهُ بهذا الاسم الإمام أبي حنيفة النعمان —رضي الله عنه— لأنه يبحث في أمور العقيدة فهو: الفقه الأكبر بالنسبة إلى قه الفروع[٢].

والاسم المعروف به هو علم الكلام:

ولعـــل ذلـــك راجع لما فيه من المناظرة على البدع، وهي كلام صرف، وليست براجعة إلى عمل[٣].

أو سمي علم الكلام؛ لأن مسألة الكلام كانت من أشهر مباحثه، وأكثرها نزاعًا وجدالاً[٤].

---

(١) محمد أحمد خليل الملكاوي، عقدية التوحيد في القرآن الكريم، دار ابن تيمية الرياض، ١٤١٢هـــ، ص١٢٢.

(٢) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١١ هـــ، ١٩٩٠م، جـــ١، ص٥.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص٤٦٥.

(٤) عبد الرحمن بدوي، مذاهب الإسلاميين، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣م، جـــ١، ص٣٢.

فمسألة كلام الله هل هو محدث أم قديم كانت أشهر المسائل التي بحثها رجال هذا العلم فمسألة الكلام في ذات الله —تعالى- كانت أبرز مباحثه، أو لأنه يورث القدرة على الكلام وإلزام الخصوم بالحجج.

ثالثًا: موضوع علم الكلام وفائدته في نظر علمائه:

يتناول علم الكلام، أركان الإيمان الستة وما يتعلق بمبادئ الإيمان، كالإيمان بالله تعالى وصفاته وأفعاله، ومسألة الإيمان بالقدر، ومسألة النبوة وغيرها من العقائد الدينية.

وعن موضوع علم الكلام وفائدته في نظر علماء الكلام:

يقول أبو حيان التوحيدي: «أمَّا علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح، والإحالة والتصحيح، والإيجاب والتجويز، والاقتدار، والتعديل والتجوير، والتوحيد والتفكير. والاعتبار فيه ينقسمُ بين دقيق ينفردُ العقل به، وبين جليل يُفزع إلى كتاب مقادير الله تعالى فيه. ثم التفات في ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم في البحث والتنقير، والفكر والتحبير، والجدل والمناظرة والبيان والمفاضلة، والظفر بينهم بالحق سجال، ولهم عليه مكر ومجال، وبابه مجاور لباب الفقه، والكلام فيهما مشترك. وإن كان بينهما انفصال وتباين، فإن الشركة بينهما واقعة، والأدلة فيهما متضارعة. ألا ترى أن الباحث عن العالم في قدمه وحدثه، وامتداده وانقراضه، يشاور العقل ويخدمه، ويستضيء به ويستفهمه؟ كذلك الناظر في العبد الجاني هل هو مشابه للمال فيرد إليه، أو مشابه للحر فيحمل عليه؟ فهو يخدم العقل ويستضيء به»[1].

---

(١) في كتابه: ثمرات العلوم، المطبوع مع كتاب "الأدب والإنشاء في الصداقة والصديق ص١٩٢.

وهذا يعني بالطبع أن علم الكلام يهتمُ في موضوعاته ببحث أمور الديـــن في ضوء العقل ومناهجه مبتغيًا من وراء ذلك تأسيس النواحي الإيمانـــية وإقامـــة العقيدة والدفاع عنها ونصرتها من خلال فهم العقل لمضمون الإيمان الصحيح.

ويحدثـــنا العلامـــة ابن خلدون في مقدمته عن فوائد علم الكلام فـــيقول: «فائدة علم الكلام في آحاد الناس وطلبة العلم معتبرة، إذ لا يحســـن بحامل السنة الجهل بالحجاج الفطرية على عقائدها»[١]. ولعلم الكـــلام أهداف متعددة أهمها التصدي أمام دعاوى الضالين وأصحاب الـــبدع والمبطلين. يقول عثمان الدارمي (ت٢٨٠هـــ) وهو من رجال الحديـــث الذين اشتغلوا بالدفاع عن العقيدة يقول: أنه بعد أن ظهرت البدع من أهلها، وجب على العلماء التصدي لهم بالتكذيب والتكفير، مـــنافحة عن الله كيلا يسب ولا تعطل صفاته، وذبًا عن ضعفاء الناس كـــيلا يضلوا بمحنتهم هذه، من غير أن يعرفوا ضدها من الحجج التي تبطل دعواهم وتبطل حججهم. أو طمعتم معشر الجهمية والواقفة أن تنصبوا الكفر للناس إمامًا تدعونهم إليه وتسكتوا أهل السنة عن الإنكار عليكم، حتى يروج على الناس ضلالكم؟ لقد أسأتم بأهل السنة الظن، ونسبتموهم إلى العجز والوهن[٢].

ويـــزعم علماء الكلام أن من أبرز وأهم فوائد علم الكلام العمل عـــلى حفظ قواعد الدين ضد شبه أعدائه وإيضاح حجج الدين القيم أمـــام خصومه يقول الإيجي عن فائدته: «الرقي من حضيض التقليد إلى

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٣١. طبعة الشنعب.

(٢) الـــنقض عـــلى بشر المريسي، باختصار بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقي، ص١٠٧-١٠٩.

ذروة الإيقـــان» ﴿يـــرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أتوا العلم درجات﴾ .

والفـــائدة الثانـــية: إرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة.

والفائدة الثالثة: حفظ قواعد الدين عن أن تزلزلها شبه المبطلين.

والفائدة الرابعة: أن يبنى عليه العلوم الشرعية فإنه أساسها وإليه تؤول أخذها واقتباسها.

الفـــائدة الخامســـة: صحة النية والاعتقاد. إذ بها يرجى العمل. وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين»[1].

ويشارك الشعراني (٩٧٦هـــ) غيره من العلماء القائلين بأن علم الكـــلام هدفه ردع الخصوم بالنظر العقلي فيقول: «اعلم رحمك الله أن عـــلماء الإســـلام ما صنفوا كتب العقائد ليثبتوا في أنفسهم العلم بالله تعـــالى، وإنمـــا وضـــعوا ذلك ردعًا للخصوم الذين جحدوا الإله، أو الصفات، أو الرسالة، أو رسالة محمدﷺ بالخصوص، أو الإعادة في هذه الأجســـام بعـــد الموت، ونحو ذلك مما لا يصدر إلا من كافر. فطلب عـــلماء الإســـلام إقامة الأدلة على هؤلاء، ليرجعوا إلى اعتقاد وجوب الإيمان بذلك لا غير.

وإنما لم يبادروا إلى قتلهم بالسيف رحمة بهم، ورجاء رجوعهم إلى طـــريق الحق، فكان البرهان عندهم كالمعجزة التي ينساقون بها إلى دين الإسلام، ومعلوم أن الراجع بالبرهان أحق إيمانًا من الراجع بالسيف، إذ

---

(١) المواقـــف للأيجـــي ص٨. وهو نفس ما ذكره التهانوي من علماء القرن الثاني عشر الهجري في كشافه كشاف اصطلاحات الفنون (ص ٢٢،٢٣).

الخوف قد يحمل صاحبه على النفاق، وصاحب البرهان ليس كذلك، فلذلك وضعوا علم الجوهر والعرض، وبسطوا الكلام في ذلك، ويكفي في العصر الواحد واحد من هؤلاء»[١].

فعلماء الكلام يرونَ أن علم الكلام من فوائده الحجاج عن الدين كما يورث صاحبه القدرة على الكلام في أصول الدين ويساعده على معرفة أصول دينه.

رابعًا: علم الكلام بين المهاجمين والأنصار:

من المؤيدين لعلم الكلام المصعبي الأباضي حيث يقول: «وفائدة علم الكلام الترقي من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان، وإرشاد المسترشدين بإيضاح المحجة، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة، إن علم الكلام أهم الأمور وأعلاها، وغايته أشرف الغايات وأنفعها، ودلائله يقينية، يحكم بها صريح العقل، وقد تأيدت بالنقل»[٢].

أمَّا علماء السلف فقد هاجموا علم الكلام هجومًا عنيفًا وذموا أصحابه ذمًا شديدًا، ولعل الإمام ابن تيمية من أبرز المقاومين لهذا العلم وقال: (السلف استفاض عنهم ذم المتكلمين وذم أهل الكلام مطلقًا)[٣].

بل إن من علماء الخلف من يتفق مع السلف في وجهة النظر هذه كما قال طاش كبرى زاده: «إن السلف من الفقهاء والمجتهدين، قد ينقل عنهم النكير في حق علم الكلام، حتى أن كثيرًا من فقهاء عصرنا

---

(١) اليواقيت والجواهر للشعراني جـ١ ص٢٢.

(٢) المصعبي، عبد العزيز بن إبراهيم، معالم الدين، عُمَان، ١٤٠٧هـ، جـ١ ص٢٠.

(٣) ابن تيمية، النبوات، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٢٨.

أنكـــروا على المشتغلين بعلم الكلام أشد الإنكار، متمسكًا بما ورد في ذلك عن العلماء الأخيار»[١].

وقـــال ابـــن عبد البر في جامع البيان وفضله: «أجمع أهل الفقه والآثـــار من جميع الأمصار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في جميع الأمصار في طبقات العلماء. وإنما العلماء أهل الأثر والتفقه فيه»[٢].

وقال الإمام الخطابي: اعلم أن الأئمة الماضين والسلف المتقدمين لم يـــتركوا هـــذا النمط من الكلام، وهذا النوع من النظر عجزًا عنه ولا انقطاعًـــا دونه، وإنما تركوا هذه الطريقة وأضربوا عنها لما تخوفوه من فتنتها وحذروه من سوء مغبتها، وقد كانوا على بينة من أمرهم وعلى بصـــيرة مـــن دينهم، ورأوا أن فيما عندهم من علم الكتاب وحكمته وتوقيف السنة وبيانها غنىً ومندوحة عما سواهما[٣].

موقف الفقهاء من علم الكلام:

قـــال أبو حنيفة —رحمه الله—: لعن الله عمرو بن عبيد (المعتزلي)، فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام. وقال محمد بـــن الحسن (تلميذ أبي حنيفة) —رحمه الله—: وكان [أي أبي حنيفة] يحثنا على الفقه وينهى عن الكلام[٤].

---

(١) طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة جـــ٢ ص١٣٥.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، جـــ٢ ص١١٧.

(٣) الســـيوطي، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، تحقيق علي سامي النشار، مكتبة عباس الباز، مكة المكرمة، ص٩٣، ٩٤.

(٤) انظر السفاريني، لوامع الأنوار البهية جـــ١ ص١٠٩.

وسُـئِلَ الإمام أبو حنيفة: ما تقول فيما أحدث الناسُ من الكلام في الأعـراض والأجسـام، فقـال: ((مقالات الفلاسفة، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإياك وكل محدثة فإنها بدعة))[١].

وقـال أبو يوسف صاحب أبي حنيفة: من طلب الدين بالكلام تزندق[٢].

موقف الإمام مالك من علم الكلام:

قـال الفقيه المحدث العراقي عبد الرحمن بن مهدي —رحمه الله—: دخلـتُ على مالك بن أنس —رضي الله عنه— وعنده رجل يسأله عن القرآن والقدر، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد لعنَ اللهُ عمرًا، فإنـه ابتدع هذه البدعة منَ الكلام، ولو كان علمًا لتكلم به الصحابة والـتابعونَ —رضـي اللهُ عنهم— كما تكلموا في الأحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل[٣].

موقف الإمام الشافعي من علم الكلام:

يعد الإمام الشافعي من أشد الفقهاء إنكارًا وذمًا لعلم الكلام حتى أنـه كـان يقـول: ((لأن يُبْتَلى المرءُ بكل ذنب نهى الله عنه، ما خلا الشرك، خير له من أن يبتلى بالكلام))[٤].

وقـال الشـافعي: لـو أوصى رجل لأهل العلم، لم يدخل أهل

---

(١) السيوطي، صون المنطق، ص٣٢.

(٢) ابن عساكر، تبيين كذب المفتري، ص٣٣٢.

(٣) انظـر ابن مسعود الفراء البغوي، شرح السنة، تحقيق الأرناؤوط والشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، جـ١ ص٢١٧.

(٤) البيهقي، مناقب الشافعي، جـ١ ص٤٥٣.

الكلام... ولو أن رجلاً أوصى بكتبه من العلم لآخر، وكان فيها كتب الكلام، لا تدخل في الوصية لأنها ليست من كتب العلم[١].

وقال البغدادي في الفرق بين الفِرق: وقد أشارَ الشافعي في كتاب القياس إلى رجوعه عن قبول شهادة المعتزلة وأهل الأهواء. وبه قال مالك وفقهاء أهل المدينة[٢].

حيث قال: حكمي في أهل الكلام أن يضربوا بالجريد ويُحملوا على الإبل، ويطافُ بهم في العشائر والقبائل، وينادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام[٣]. وكان الشافعي يعتبر أهل الكلام أهل بدعة ويقول: «إياكم والنظر في الكلام، فإن رجلاً لو سُئلَ عن مسألة في الفقه فأخطأ فيها، أو سئل عن رجل قتل رجلاً، فقال: ديَّتُه بيضة! كان أكثر شيء أن يضحك منه. ولو سُئِلَ عن مسألة في الكلام فأخطأ فيها نُسبَ إلى البدَعة»[٤].

لكن من زاوية أخرى نلاحظ أن هناك من يؤول كلام الشافعي بل يرى أنه من المجوزين للاشتغال به بمعنى خاص. فقد ذكر ابن عساكر أن الشافعي كان يتكلم عن حفص الفرد الذي ناظره وكلام أمثاله من أصحاب الأهوية «وما يزخرفه أرباب البدع المردية، فأمّا الكلام الموافق للكتاب والسنة الموضح لحقائق الأصول عند ظهور الفتنة فهو محمود عند العلماء ومن يعلمه، وقد كان الشافعي يحسنه ويفهمه وقد تكلم

---

(١) البغوي، شرح السنة، جـ١ ص٢١٨.

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢ م، ص١٥٦.

(٣) البيهقي، مناقب الشافعية، جـ١ ص٤٦٢.

(٤) السيوطي، صون المنطق، ص١٥٠.

مع غير واحد ممن ابتدع وأقام الحجة عليه حتى انقطع»[١].

ويحمـــل طعنه في علم الكلام على عدة تأويلات منها —أن الفتن العظـــيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة القرآن وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحق ولم يلتفتوا إلى دلائل المحقين فلما عرف الإمام الشافعي —رضي الله عنه- أن البحث عن هذا العـــلم في ذلـــك الزمان ليس لطلب الحق وليس لله وفي الله، بل لأجل الدنيا فلا جرم أن تركه وأعرض عنه وذم من اشتغل به.

والـــثاني أن يصرف ذلك الذم إلى الكلام الذي كان أهل البدعة ينصـــرونه ويقـــرونه فقد كان الكلام في ذلك الزمان اسمًا للمتكلم في الاعتزال والقدر.

والثالـــث —لعله كان مذهبه- أي الإمام الشافعي-: أن الاكتفاء بالدلائل المذكورة في كتاب الله -عز وجل- واجب وأن الزيادة عليها والتوغل في المضايق التي لا سبيل للعقل إلى الخوض فيها غير جائز فهذا بالغ في ذم من حاول الخوض في تلك الدقائق[٢].

وإنني أتفقُ مع رأي الدكتور يحيى هاشم حين يرى[٣] أن التوجيه الأول من كلام فخر الدين الرازي ربما كان مجانبًا للصواب باعتبار ما اشـــتمل عليه من تحديد زمني لواقعة الاضطهاد في مسألة خلق القرآن، وذلـــك لما نعلمُه من أن الاستعانة بالسلطان في مسألة خلق القرآن إنما

---

(١) تبيين كذب المفتري لابن عساكر، ص٣٢٥.

(٢) مناقب الشافعي للرازي ص٦٤، ٦٥.

(٣) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام للدكتور يحيى هاشم حسن فرغل ص ٨٣، ٨٤، باختصار.

كانت في عصر المأمون من بعد.

أمَّا ما روي في إطلاق اسم علم الكلام والمتكلم على البدع وأهلها، وعلى الخائضين في دقائق المسائل خاصة، فإنه يصحح التوجيهين الثاني والثالث. والدكتور يحيى هاشم من أشد المدافعين عن علم الكلام في العصر الحديث يقول: "أمَّا ما استندَ إليه المانعونَ في ذم علم الكلام من أنه لم يشتغل به الصحابة فليس سببًا كافيًا في إقناع الكثيرين بالكف عنه؛ لأن علم الكلام ظهر في وقت كانت فيه بوادر العلوم الأخرى تظهر، والحاجة إليها جميعًا تتبين، فقد عاش في عهد المنصور العباسي واضعو العلوم اللغوية، سيبويه، والخليل، والكسائي، وفي سنة١٤٣هـ كما روى الذهبي بدأ علماء المسلمين يصنعونَ مؤلفات تتناول الأحاديث، والفقه، وتفسير القرآن، ومن المعروف أن الصحابة لم يشتغلوا بشيء من هذه العلوم على الوجه الذي ظهرت به كعلوم متخصصة أو شبه متخصصة، ولو صح أن عدم اشتغالهم بعلم الكلام كاف في منعه لكان ذلك صحيحًا أيضًا بالنسبة لهذه العلوم.

ومن هنا اتجه البعضُ إلى الاشتغال به بأسلوب بعيد عن البدعة والخفاء مثل ما كان عليه أبو حنيفة —رضي الله عنه—، ومن هنا أيضًا حصل التردد بين المنع والإجازة.

والحقيقة إن هناك عددًا من علماء المسلمين جوزوا الاشتغال بعلم الكلام ومسائله. ومن هؤلاء العلماء المجوزين "أبو الحسن الأشعري" الذي وضع رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام. رد فيها على دعوى الحنابلة الذين ذموا علم الكلام ونهوا عن الخوض فيه.

ونظرًا للأهمية البالغة لرسالة الأشعري التي تعبر بصدق عن مذهب الأشعري ودفاعه عن المتكلمين فإننا نورد هذه الرسالة بتمامها في

ملحق الكتاب لأنها تعدُ في رأينا أبلغ رسالة تبين آراء المجوزين للاشتغال بعلم الكلام ومسائله[١].

والحق أن الأشاعرة وضعوا علم الكلام على أسس من الأدلة العقلية والنقلية فحفظته من محاولات هدمه، لكن الأشاعرة أوجبوا على الناس معرفة الأدلة التي تذرعوا بها إلى إثبات العقائد فعندهم أن الجهل بالدليل يؤدي إلى عدم المدلول حتى جاء الإمام الغزالي والإمام الفخر الرازي فحللا الناس من هذا القيد وقالا: قد يكون في الدليل الذي تقرر عند الأشاعرة ضعف أو قد يوجد عند سواهم دليل أقوى منه فلا معنى للحجر على الأذهان والعقول ما دامت الغاية والهدف تأكيد العقيدة ورسوخها وثبات اليقين.

وأيضًا من المجوزين الاشتغال بعلم الكلام ومسائله الحسن البصري —رحمه الله— وذلك في رسالة ذكرها صاحب المنية والأمل، أرسلها إلى عبد الملك بن مروان، ويقال أنه أرسلها إلى الحجاج. وكان موضوع الرسالة أصلاً القضاء والقدر وأفعال العباد، وفي الرسالة نجد قوله: «لم يكن أحد من السلف يذكر ذلك ولا يجادل فيه، لأنهم كانوا على أمر واحد، وإنما أحدثنا الكلام فيه لما أحدث الناس من النكرة له، فلمّا أحدثَ المحدثون في دينهم ما أحدثوهُ أحدثَ الله للمُتمسكين بكتابه ما يبطلونَ به المحدثات، ويحذرونَ به من المهلكات»[٢].

---

(١) "رسالة في استحسان الخوض في علم الكلام" لأبي الحسن الأشعري نشرة يوسف مكارثي اليسوعي، بيروت ١٩٥٣، ضمن ذيل كتابَ "اللمع" للأشعري.

(٢) المنية والأمل لابن المرتضى ص١٢.

موقف الإمام أحمد بن حنبل من علم الكلام:

يقول الإمام أحمد في رسالته إلى الخليفة المتوكل العباس: ولستُ بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله عز وجل أو في حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه أو عن التابعين، وأمّا غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود[١].

وقال الإمام أحمد بن حنبل: «لا يفلحُ صاحب كلام أبدًا، علماء الكلام زنادقة»[٢].

وروي عن أحمد أيضًا أنه لما كتب إليه رجل يسأله عن مناظرة أهل الكلام والجلوس معهم، أجابه برسالة طويلة منها قوله: «الذي أدركنا عليه من أدركنا من أهل العلم أنهم كانوا يكرهونَ الكلام والجلوس مع أهل الزيغ»[٣].

وأثر عن أحمد قوله: لا تجالسوا أهل الكلام وإن ذبوا عن السنة[٤].

وقال ابنُ قتيبة –رحمه الله–: تدبرتُ مقالة أهل الكلام، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ويفتنونَ الناس بما يأتون ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون أراءهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث، وما

---

(١) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، جمع عبد الإله الأحمدي، ط دار طيبة، الرياض، جـ٢ ص٢٩٨.

(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧، ص٩٦.

(٣) البيهقي، مناقب الشافعي، جـ١، ص٤٥٩.

(٤) ابن الجوزي، مناقب الإمام أحمد، تحقيق الدكتور عبد الله التركي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٣٩٩هـ، ص٢٠٥.

أودعاهُ من لطائف الحكمة، وغرائب اللغة لا يدرك بالطفرة، والتولد، والعَرَض، والجوهر، والكيفية، والكمية، والأينية[١].

وقـــال الشيخ عبد القادر الجيلاني: «لستُ بصاحب كلام، ولا أرى الكـــلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله عز وجل، أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه رضي الله عنهم، أو عن التابعين، فأمّا غير ذلك فإن الكلام فيه غيرُ محمود فلا يقال في صفات الرب عز وجل كيف و لم، ولا يقول ذلك إلا شاك»[٢].

---

(١) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص١٢.

(٢) الجيلاني، "الغُنْية"، جـــ١ ص٥٦.

obeikandl.com